أبو عبيد القاسم بن سلاّم

ـ الإمام في الشرع واللغة ـ

العلم نور يضيء للبشرية الطريق ، وهو التراث القيم الذي يورِّثه السلف للخلف ، والعلم نسب بين أهله ، كما أن العلماء منارات للهدىٰ ، ويضعون كتبهم مشاعل للنور ، فيستضيء بها الناس ، ويتعرفون من خلالها على المؤلفين ، فتحيي ذكراهم ، وتصوِّر حياتهم ، وترسم الصورة لشخصيتهم .

وقد أنجبت أمتنا في عصرها الزاهر عدداً من الأئمة والعلماء ، تركوا آثاراً خالدة في تاريخ أمتهم ، وفي تاريخ البشرية ، وكانت بصماتهم مبثوثة في كل مكان ، ونهل من علمهم ومعينهم كثيرون وكثيرون .

ومن هؤلاء الأئمة الأعلام أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، الذي وصفه ابن حبان في الثقات ، فقال: «كان أحد أئمة الدنيا ، صاحب حديث وفقه ودين وورع ، ومعرفة بالأدب وأيام الناس ، جمع وصنف واختار ، وذبَّ عن الحديث ، ونصره ، وقمع من خالفه»[1] .

اسمه ونسبه :

هو أبو عبيد القاسم بن سلاّم بن مسكين بن زيد ، الرومي الأصل ،

---

(١) تهذيب التهذيب ٨/٣١٨.

الخراساني المولد ، الأزدي بالولاء ، البغدادي المسكن ، المكي وفاة.

وهو الإمام المجتهد ، الفقيه المحدث ، اللغوي النحوي ، الأديب العالم بالقراءات ، القاضي.

ولادتــه وتعـلمــه:

ولد أبو عبيد في هَراة بخراسان عام ١٥٤هـ/ ٧٧٠م ، وكان أبوه رومي الأصل ، وكان مولىٰ لقبيلة الأزد.

طلب أبو عبيد العلم في مسقط رأسه ، ثم ارتحل في طلب العلم إلى الكوفة والبصرة وبغداد ، فسمع الحديث عن عدد من المحدثين ، وقرأ القرآن ، ودرس الفقه ، وتعلم التفسير ، وتلقىٰ القراءات وأخذ اللغة والنحو والتاريخ والشعر ، وجمع صنوفاً من العلم على أيدي كبار العلماء ، وسمعها من أفواههم ، وتفقه على الشافعي في بغداد وتناظر معه ، وجالس أحمد بن حنبل ، وبرع في العلوم ، كما قال الذهبي: «وكان حافظاً للحديث وعلله ، ومعرفته متوسطة ، عارفاً بالفقه والاختلاف ، رأساً في اللغة ، إماماً في القراءات ، له فيها مصنف»[١] ، وقال ابن درستويه عنه: «من علماء بغداد المحدثين النحويين على مذهب الكوفيين ، ورواة اللغة والغريب عن البصريين والكوفيين ، والعلماء بالقراءات ، ومن جمع صنوفاً من العلم ، وصنف الكتب في كل فن من العلوم والأدب فأكثر وشهر- أبو عبيد القاسم بن سلاّم»[٢].

التـأديــب والـتعليــم:

ولما انتهى أبو عبيد من طلب العلم عاد إلى خراسان ، واشتغل بالتعليم والتأديب الذي كان في ذلك الوقت عملاً علمياً رفيعاً ، ولا يتولاه

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/ ٤١٧.

(٢) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٤.

إلا العالم الضليع باللغة والأدب ، وعمل في تأديب الأسر ذات النفوذ ، كأولاد هرثمة بن أعين الذي كان من كبار القوّاد على عهد الرشيد والمأمون ، وانتقل في عمله إلى مرو مواصلاً تأديب الأولاد وتعليمهم ، إلى أن مرَّ بتلك المدينة رجل من كبار القوّاد والوزراء ، وهو طاهر بن الحسين ، وكان في طريقه إلى خراسان لبعض الحروب ، فطلب رجلاً يحدثه ليلة ، فقيل: ما هنا إلا رجل مؤدب ، فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه ، فقال له: من الظلم تركك بهذا البلد ، ودفع إليه ألف دينار ، وقال له: أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب ، لست أحب استصحابك خوفاً عليك ، فأنفق هذا المال إلى أن أعود إليك ، واشتغل بالتصنيف إلى أن عاد طاهر بن الحسين من خراسان ، فحمله معه إلى «سر من رأى» وهناك واصل التأليف والتدريس والتحديث[1].

ثم ذهب أبو عبيد إلى بغداد ، وهناك جمعه القدر بثابت بن نصر بن مالك الخزاعي ، فانتدبه لتأديب ولده.

ولايته للقضاء:

كان ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي يتولىٰ إمارة الثغور ، فلما ولي طَرسوس ولّىٰ أبا عبيد القضاء فيها سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٧م ، وظل في القضاء ثماني عشرة سنة ، وكان ذا هيبة ووقار ، لكنه ضاق بالقضاء ذرعاً ، لأنه قطعه عن التأليف ، فترك القضاء سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م ، وألف كتاب «أدب القاضي» مستفيداً من علمه وخبرته وتجربته.

رحلاته:

ولما ترك أبو عبيد القضاء قام ببعض الأسفار ، فرحل إلى مصر سنة

---

(١) إنباه الرواة ٣/ ١٥.

٢١٣هـ/٨٢٨م وقدم دمشق ، ثم اتجه إلى بغداد ، واستقر فيها ، ودرس الحديث والأدب ، وبدأ يُفسر غريب الحديث ، ويسمعه عنه الناس ، وصار أستاذاً يقصده الطلاب والعلماء للإفادة منه والأخذ عنه ، ونبغ تلامذته في العلم ، واشتهر ذكرهم ، وتصدوا للإفادة.

وكان أبو عبيد إذا ألف كتاباً أهداه إلى عبد الله بن طاهر الذي أظله برعايته مدة مقامه ببغداد ، وكافأه على كتبه بالمال الجزيل استحساناً ، وأجرىٰ له كل شهر عشرة آلاف درهم ، ولما صنف أبو عبيد كتابه «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر ، فاستحسنه وقال: «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش»[١].

شيوخه وعلومه:

جمع أبو عبيد علوماً كثيرة ، ونهل العلم عن عدد كبير من العلماء في مختلف البلاد التي زارها أو وصل إليها ، وأخذ عن مشاهير العلماء ، فدرس الفقه في بلده ، وفي البلاد التي رحل إليها وأخذ عن الإمام الشافعي ببغداد ، وناظره في بعض المسائل ، وجالس الإمام أحمد ، لكن أبا عبيد كان مجتهداً ولم يتبع مذهباً معيناً ، وكان له مذهب حسن ، ويتبع السنة ، وكان يقول: «المتبع للسنة كالقابض على الجمر ، وهذا اليوم أفضل عندي من ضرب السيف في سبيل الله عز وجل»[٢] ، وأخذ القراءات عرضاً وسماعاً عن الكسائي وغيره ، وروىٰ عنه القراءة كثيرون ، وله اختيار في القراءة وافق فيه العربية والأثر ، وسمع الحديث من الحفاظ ، ومنهم أبو عبيد إسماعيل بن جعفر ، وشريك ، ويحيىٰ

---

(١) إنباه الرواة ٣/ ١٩.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٦٠.

القطان ، وحجاج بن محمد ، ويزيد بن هارون وهشيم وسفيان بن عيينة ، وغيرهم ، ثم حدث أبو عبيد ، لكنه كان قليل الرواية ، ذكره البخاري في جزء القراءة خلف الإمام ، وحكى عنه في كتاب الأدب ، وفي كتاب أفعال العباد ، وذكره أبو داود في تفسير أسنان الإبل في كتاب الزكاة ، وذكره الترمذي في «الجامع» في غير موضع في القراءات ، وروىٰ الحديث عن أبي عبيد جماعة منهم محمد بن إسحاق الصاغاني وابن أبي الدنيا وعبد الله الدارمي والحارث بن أبي أسامة وعلي بن عبد العزيز البغوي ، وآخرون ، وقال أبو داود عنه: «ثقة مأمون» وقال الذهبي: «من نظر في كتب أبي عبيد علم مكانه من الحفظ والعلم»[1] ، وروىٰ أبو عبيد في اللغة والأدب عن علماء البصرة والكوفة كأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ والكسائي والفراء.

أخلاقه وشمائله:

كان أبو عبيد ورعاً جواداً ربانياً ، ذا فضل ودين ، وكان يقسم الليل ثلاثاً ، فيصلي ثلثه ، وينام ثلثه ، ويضع الكتب ثلثه ، وكان يُخضب بالحناء ، أحمر الرأس واللحية ، ومما يذكرني كرمه وجوده أنه كان مع عبد الله بن طاهر ، فبعث أبو دُلف إلى ابن طاهر يستهديه أبا عبيد مدة شهرين ، فبعثه ، فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها ، وقال: أنا في ناحية رجل ما يُحوجني إلى صلة غيره ، فلا آخذ ما علي فيه نقص ، فلما عاد ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار عوضاً عنها ، فقال له أبو عبيد: «قد قبلتها ، ولكن أغنيتني بمعروفك وبرك ، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلاً ، وأبعثها إلى

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٤١٧ ، وانظر تهذيب الأسماء ٢/٢٥٧ ، طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/ ١٥٤.

الثغر ليكون الثواب متوافراً على الأمير ، ففعل»[1].

ثناء العلماء عليه:

كان أبو عبيد فاضلاً ، حسن السيرة ، ثقة في دينه وعلمه وروايته ، معظماً عند العامة والخاصة ، يقرن اسمه مع الأئمة الكبار ، مشهوراً في الآفاق ، أثنىٰ عليه العلماء خيراً ، فقال الحاكم: «هو الإمام المقبول عند الكل رحمه الله» ، وسئل عنه يحيىٰ بن معين ، فقال: أبو عبيد يسأل عن الناس ، وقال الهلال بن العلاء الرقي: «منَّ الله على هذه الأمة بأربعة في زمانهم ، بالشافعي تفقه في حديث رسول الله ﷺ ، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة ، لولا ذلك كفر الناس ، وبيحيىٰ بن معين نفىٰ الكذب عن حديث رسول الله ﷺ ، وبأبي عبيد القاسم بن سلاّم ، فسر الغريب من حديث رسول الله ﷺ ، لولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ» ، وقال اسحاق بن راهويه: «والحق يُحبه الله ، أبو عبيد أفقه مني ، وأعلم مني ، وهو أوسعنا علماً ، وأكثرنا أدباً ، إنا نحتاج إليه ، ولا يحتاج إلينا» ، وقال ثعلب: «لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجباً» وقال عبد الله بن طاهر: «علماء الإسلام أربعة: عبد الله بن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والقاسم بن معن في زمانه ، والقاسم بن سلاّم في زمانه» ، وقال إبراهيم الحربي: «ما مثلت أبا عبيد إلا بحبل نفخ فيه الروح» ، وقال الداني عنه: «إمام أهل دَهره في جميع العلوم ، صاحب سنة ، ثقة» ، وقال محمد بن أبي بشر: أتيت أحمد بن حنبل في مسألة ، فقال لي: ائت أبا عبيد ، فإن له بياناً لا تسمعه من غيره ، قال: فأتيته فشفاني جوابه ، وقال ابن درستويه: «كان أبو عبيد من علماء بغداد المحدثين النحويين على مذهب الكوفيين ، ومن أداة اللغة والغريب

---

(١) تهذيب الأسماء ٢/٢٥٧ ، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/١٥٥ ، طبقات الحنابلة ١/٢٦١.

وعلماء القرآن» وقال القاضي أحمد بن كامل: «كان أبو عبيد فاضلاً في دينه وعلمه، متقناً في أصناف علوم الإسلام من القرآن والفقه والعربية والأخبار، حسن الرواية، صحيح النقل، لا أعلم أحداً من الناس طعن عليه في شيء من أمره ودينه»، وقال الإمام أحمد بن حنبل: «أبو عبيد أستاذ، وهو يزداد كل يوم خيراً»، وقال الجاحظ: «لم يكتب الناس أصح من كتبه، ولا أكثر فائدة»، وقال أبو الطيب اللغوي: «أبو عبيد مصنف حسن التأليف، إلا أنه قليل الرواية».

كتب أبي عبيد:

صنف أبو عبيد في كل فن، وله كتب كثيرة تزيد على العشرين في العلوم المختلفة، ذكرها ابن النديم وابن خلكان وغيرهما، وكتبه مستحسنة، لكنه اعتمد على البحوث والكتب التي وضعها العلماء قبله، وسبقوه إلى أكثرها، فهذبها ورتبها ونسقها، وصاغها بأسلوب رفيع، وأجاد في التصنيف حتى فاق أسلافه، وأفاد منه المتأخرون، وأكبوا عليها، واعتمدوا على ما فيها، وأكثروا من الاستشهاد بها.

فمن كتبه الفقهية كتاب: «الطهارة»، وكتاب: «الحيض»، و«أدب القاضي»، و«الأحداث»، و«الأيمان والنذور»، و«الحجر والتفليس»، وأهمها كتاب: «الأموال» الذي طبع عدة مرات ويعتبر مرجعاً مهماً في بابه، وهو أحسن ما صنف في الفقه المالي.

ومن كتبه في القرآن وعلومه كتاب «معاني القرآن»، و«غريب القرآن»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«فضائل القرآن»، و«عدد أي القرآن»، و«المقصور والممدود» في القراءات.

ومن كتبه في الأدب واللغة «الشعراء أو معاني الشعر»، و«الأمثال» وهو مطبوع، و«النسب»، و«المذكر والمؤنث»، وأهمها كتاب «الغريب المصنَّف» الذي في تصنيفه أربعين سنة، وهو أجل كتبه في اللغة.

ومن كتبه في الحديث كتاب: «غريب الحديث» الذي جمع فيه غاية ما في كتب سابقيه، وأجاد تصنيفه، فرغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة، لاجتماع ما يحتاجون إليه فيه[1].

وفـاتــه:

وفي سنة ٢١٩هـ/ ٨٣٤م ذهب أبو عبيد إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وزار المدينة المنورة، ولما عزم على العودة إلى العراق رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام، وعلى رأسه ناس يحجبونه، فمنعوه من الدخول، لأنه يريد السفر إلى العراق، فوعدهم بعدم الخروج، وأخذوا عليه العهد بذلك، وخلوا بينه وبين رسول الله ﷺ فدخل عليه وصافحه، وسلم عليه، ثم استقر في مكة، وسكن بها حتى وافته المنية سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، ودفن بدار جعفر بن أبي طالب، وقد خلف وراءه ذكراً عطراً، وعلماً نافعاً، وكتباً قيمة، وأثراً خالداً ينتفع به الناس إلى ما شاء الله، ليبقىٰ حياً في النفوس والقلوب وعلماً يقتفىٰ ذكره.

* * *

(١) غاية النهاية ٢/ ١٨، الأعلام ٦/ ١٠، وفيات الأعيان ٣/ ٢٢٥، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤١٧، طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/ ١٥٩، تهذيب الأسماء ٢/ ٢٥٨.